السيميائية وإيديولوجية الانفتاح من حتمية المحايثة إلى لامحدودية القراءة

د. بن سنوسي سعاد
قسم اللغة العربية وآدابها– كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة جيلالي ليابس– سيدي بلعباس

تمهيد:

يعد النموذج اللساني بإمكاناته الإجرائية المتاحة لرصد العناصر اللغوية التي من شأنها أن تشكّل وحدات النص وتضمن تلاحمه وانسجامه، فاتحة التأسيس ومرتكزا جوهريا اتكأت عليه القراءت النسقية في خضم الطرح البنوي وما يليه، ولعل السيميائية الأدبية في فترتها الأولى – فترة المحايثة – أهم الاتجاهات التي ارتكنت لهذا المشروع وانساقت وراء مقترحاته النقدية، التي تصب في إطار الانغلاق على دواخل النص بترجمة نسقه اللغوي وفقا لمستلزمات العلاقة الجوهرية التي تحكم الدال بالمدلول، وهو ما حدا بالسيميائية الأدبية إلى الانصياع المطلق لمبدإ القراءة المغلقة على زوايا النص بالارتهان لخطاطات مسبقة تستمد أسسها النظرية والتطبيقية من التيار البنوي، ما جعلها تُغرق في المحايثة وتمجّد أسطورة النسق المغلق.

وقد كان هذا الملمح التحليلي المغلق على تصورات تستبق لحظة ميلاد النص،هو الدافع إلى تبنّي تصور نقدي يقف على تخطي مأزق المحايثة، ويعمد إلى البحث عن آفاق جديدة للتأويل والتلقي، حيث تتاح إمكانية فسح المجال لبروز قراءات متعددة للنص الواحد.

السيميائية من التفكير المحايث إلى استراتيجية الانفتاح:

إن قراءة متأنية في جوهر ما أنتجته السيميائيات البنوية – بما فيها سيميائية "غريماس"– تفيدأنّ المسلمات التي تبنّتها تنحو صوب التسليم بالمقترح الذي يقضي بضرورة حجز المعنى داخل النص والكشف عن سُبل إنتاجه وتشكله، ولاشك أنّ هذا التصوّر الذي كان أحد ثمار المعطى التفسيري قد أثبت المغزى القرائي للدراسة الغريماسية التي ما فتئت تشتغل على آليات البحث عن الدلالة

الأصلية المخبوءة في عمق النص والنص وحده، ولّما كان هذا التصوّر النقدي يتبنى أُطر البرمجة الآلية، فإنّه ما انفك يصطدم بواقع استراتيجية الانفتاح التي تؤمن بدينامية الدلالات النصية وبسيرورتها اللامتناهية، «فالسيميائيون يعوون جيّدا أنّ الحفاظ على إشعاع مدرسة باريس رهين بتجديد آلياتها، وإعطاء مفاهيمها الكلاسيكية منازل جديدة، وهذا ما حتّم عليهم التعامل معها بوصفها نظرية للمجموعات الدالة، وعدم الامتثال لمستويات المسار التوليدي حرفيا، والانفتاح على مدارس أخرى للإفادة من منجزاتها وإسهاماتها»[1]، التي تبلّت معالمها في تلك الإفرازات المتعلقة بمقترحات المسار التأويلي التي أكّدت فعالية مشاركة القارئ في توليد دلالات النص.

وبالاستناد إلى هذا الاستقطاب النقدي التأويلي، تتكشف ملامح انفتاح النص على متلقيه، بحيث يشبُّ عن طوق البنية المنغلقة على نفسها، لتتاح إمكانية «تفعيل دور القارئ، وتحرير طاقاته الدلالية، إنّ المعنى يتشكّل خارج أسوار النسق وليس داخله كما كان يتوهم البنويون، من هنا يحقق النص كينونته وامتداد بنيته»[2]، والقارئ ضمن هذا السياق تُسند له مهمة تدعيم سيرورة النص الدلالية بتخريجاته التأويلية اللامتناهية.

وعليه، وإن كانت هذه الاستراتيجية تقوم على التعاضد التأويلي بين النص والقارئ، والتي اعتمدتها السيميائية في مرحلة لاحقة، تجاوزت على إثرها مسلمات المرحلة الكلاسيكية الأولى، فإنّها لا تدّعي بأي حال من الأحوال أنّها استنفذت النص أو وصلت إلى منتهاه الدلالي، وإنّما « ترى في النص طاقة دلالية جبّارة لا يمكن قياس امتدادها أو تحديد اتجاهها أو حجمها، إلاّ من خلال انتقاء سياقات هي ذاتها لا يمكن أن تستنفذ كل ممكنات هذه الطاقة، إنّها لا تقوم سوى باستثمار بعضها وفق ما تشتهيه فرضية التأويل التي يتبناها القارئ، إنّها لا تُلغي قصد النص ولكنها تشترط تجسده بوجود وعي يستهدفه»[3]، فالقراءة ليست عملية إخضاعية نحو نص معين، وإنّما هي تشكّل جوهر الوعي الذي يبني مقترحاته على فرضية الاحتمال.

بناء على هذا التوجه، وإذا جاز لنا الأخذ بمصداقية إقرار "بول فاليري" *P.Valery* الذي أعلن من خلاله أنّه « لا يوجد معنى حقيقي للنص»[4*]، وإذا سلّمنا بوجود بِوَاقي دلالية في النص تُشكّل منطلقا لقراءات لاحقة، ومتى تمكّنا من تجاوز المعضلة النسقية المتعلقة بمفهوم النص المغلق، فإنّنا حينئذ نستطيع أن نضع مقاربتنا للسيميائية الأدبية في موقع متميز ضمن مسار متنامي يقف أوّلا على مخلّفات القراءة المحايثة، ومن ثمة يعمد إلى الخوض في رحاب فتوحات التأويل في ظل ما تقترحه السيميائية من بدائل منهجية، ذلك أنّ البحث في عوالم جديدة وفق متطلبات أنظمة العلامات « يقود إلى ظاهرة التأويل بوصفه إنتاجا دالا للمعنى، بالإضافة إلى كونه مدخلا أساسيا لاكتناه عالم النص الذي هو بالأساس خطاب في جوهر معنى الحياة»[5].

وأمام هذا النزوع التحليلي الذي يسعى جاهدا إلى البحث عن سُبل الخلاص من جبروت المحايثة والانغلاق النصي، انبثقت معالم سيميائية أخذت على عاتقها مهمة النهوض بالنشاط التأويلي، وتفعيل ممارسته القرائية، لتغدو عاملا أساسيا في تحريك الرؤية السيميائية وتغيير ملامحها النقدية، وهو ما تجلى من خلال المنحى التوسيعي للنص ليشمل مختلف الأسقية اللغوية وغير اللغوية.

وعليه، وبما أنّ النص ذو طابع ازدواجي مضاعف كونه – في تقدير "جوليا كريسيتفا" – كتابة وقراءة في الآن نفسه[6]، فإنّ هذا الأمر يعدّ دافعا منهجيا لترسيخ مبادئ الانفتاح في التعامل معه، ذلك أن تصوّر النص كفعل للكتابة لا يكون إلاّ من خلال فعل دينامي للقراءة المنفتحة على التاريخ، والمجتمع، والثقافة، وكل النتاج الإنساني[7].

وفي خضم هذا التحوُّل، أسهم هذا البُعد التوسيعي للنص في « انفتاح السيميائية على المكتسبات التي راكمها تحليل الخطاب والتداولية والتلفظية، وأصبح السيميائيون يولون أهمية للظواهر الخطابية التي تهم بلاغة الخطاب ومساراته الصورية»[8]، إذ انعكست ملامح مساعيهم النقدية في مختلف الممارسات التطبيقية ذات التوجه التوسيعي.

وتُعد مسألة الانفتاح نتاجا لإبدال إبستمولوجي تمثّلته السيميائية، كما أنّها حاصل تغيير رؤيوي ما انفك يشكك في مقترحات السيميائية الأدبية ومعطياتها النقدية اللصيقة بالتصورات البنوية في بُعدها المحايث، ومّما لا ريب فيه أنّ فكرة التجاوز التي تحاول أن تُلغي الثابت وتحّرر القراءة السيميائية من قيود النموذج قد تمكّنت من فرض منظور نقدي يربط بين معالم السيميائية وبين التطور الحاصل في اتجاهات النقد المعاصر، وهو ما من شأنه أن يُسهم في تجلية دينامية توليد الدلالات النصية القائمة على بُعدي الاحتمال والتأويل.

إنّ هذا التوّجه التجديدي الذي يبرز دينامية الخطاب من خلال مكوناته المنتجة للدلالة وتداولها، إنّما كان في الأساس قائما على الجمع بين وجهات مختلفة المسارات، ذلك « أنّ الاستعمالات الخاصة لمصطلح الخطاب خارج حدود اللسانيات أو السيميائيات السردية عند كل من "لاكان" ***J.Lacan*** ودريدا ***J.Derrida*** و"كريستيفا" ***J.Kristeva*** وميشال فوكو ***M.Foucoult*** وغيرهم من الباحثين في مجالات معرفية والتي يمكن وسمها بـ: فيما السيميائيات»[9]، قد أسهم في انفتاح عالم المحايثة على سياقات خطابية ومعرفية شتى تحمل فائضا من التمفصلات الدلالية بإمكانها أن تثري عمليات التأويل بما لا حصر له من آثار المعاني المهاجرة من فضاءات معرفية وثقافية مختلفة ومتنوعة[10].

إنّ إيديولوجية الانفتاح التي تُعلي من فكرة التدليل اللامتناهي والتي تتجاوز حدود اللغة وتتعدى حدود المحايثة الخطابية، وإن كانت مرجعياتها تتباين من حيث منطلقاتها وأهدافها، فإنّها تُدرك كممارسات سيميائية أو كتفاعل استراتيجي « تُتيح للدارس السيميائي للنص الأدبي أن يتجاوز أطروحة السيميائية السردية، وأن ينفتح على أبعاد سيميائية أخرى ذات صلة باستعمال الأدب للغة، وترد متمفصلة بطريقة خاصة داخل النصوص الأدبية، تعكس العلاقات الواسعة التي تُقيمها هذه النصوص مع سياقاتها الثقافية والمعرفية، ومع الذوات والهيئات المرسلة والمتلقية»[11].

في سياق هذا التصور الذي ينزع صوب التجاوز ويعمد إلى تبني مبدأ التغيير، تتمظهر فعالية النشاط التأويلي– بصفته بديلا منهجيا ارتضته السيميائية

ضمن طروحاتها النقدية– كأساس قرائي يحتكم إلى بنى النص الداخلية مع عدم إغفاله للسياق الثقافي الذي يسند البنى ويصدّق على دلالاتها.

إنّ هذه الفرضية التي حلّت من وثوقية التحليل المحايث، وحجّمت من سيطرة البنوية المنهجية « استعاضت بوعي لا يروم الوصول إلى غاية بعينها، وإنّما يمارس لعبة تسير به في كل الاتجاهات دون ضابط أو أفق، فما دامت الحقيقة نسبية وتولد ضمن السياقات لا خارجها، فإنّ كل الحقائق ممكنة»[12] ويكفي لإثبات ذلك أن يفتح المحلّل السيميائي النص على ممكنات هذه السياقات.

استنادا إلى هذا الطرح، ولئن كان « الأدب في الواقع سيرورة إنتاجية تفاعلية غير خاصة بجانب دون الآخر، أو على الأصح هو تجربة دينامية تساهم فيها أطراف متعددة لا عن طريق التحكّم والهيمنة التامة ولكن عن طريق التفاعل»[13] بين النص والقارئ، ولّما كانت الدلالة سيرورة لامتناهية يتم الكشف عن مجرياتها وصياغة ممارسات عملية عبر طرق اشتغالها، بوصفها جزءا من نمط بنائها، فإنّ ذلك قد ساهم في انبثاق تصورات نقدية سعت إلى وضع معالم نظرية من شأنها فسح المجال لتجلية ممكنات النص أمام ما تقترحه الذات القارئة، وأمام ما يقترحه الوجود ذاته.

ولاشك أنّ نظرة متأنية في عمق ما أنتجته النظريات التأويلية – والتي حاولت السيميائية أن تغرف من مدّها المعرفي– قد تُفيد في تسطير النقاط الأساسية التي بموجبها تغيّرت مساعي التوجهات النقدية، وبدأت تتبنى رؤى جديدة قلبت الموازين القرائية اعتقادا منها أنّها قد تُنقذ النص من تمادي حرفية التحليل.

وقد حاول " أمبرتو إيكو" تصنيف الأفكار التي تجاوبت مع هذا النزوع ضمن سلسلة تُلخّص فحوى المقاربة التأويلية للنصوص، والتي اعتبرها متقاطعة في مغزاها ومتشابهة في منطلقها، إذ عمد إلى تعداد مظاهرها على نحو ما يأتي[14]:

– النص كون مفتوح بإمكان المؤول أن يكتشف داخله سلسلة من الروابط اللانهائية.

– إنّ اللّغة عاجزة عن الإمساك بدلالة وحيدة ومعطاة بشكل مسبق. إنّ مهمة اللغة على العكس من ذلك، لا تتجاوز حدود إمكانية الحديث عن تطابق للمقتضيات.

– إنّ اللغة تعكس لا تلاؤمية الفكر، ذلك أن وجودنا في الكون عاجز عن الكشف عن دلالة متعالية.

– إنّ كل نص يدّعي إثبات شيء ما هو كون مجهض، أي نتاج كائن يشكو من اختلال ذهني (وهو يريد أن يقول "كذا" و "كذا"، فإنّه ينتج سلسلة لامتناهية من الإحالات مثل "هذا" ليس " هذا").

– إنّ الغنوصية النصية المعاصرة متسامحة جدا، فبإمكان أي كان أن يكون كائنا كليا، شريطة أن تكون لديه الرغبة في أن يحل قصدية القارئ محل قصدية الكاتب التي تستعصي على الضبط، لحظتها سيصل إلى الحقيقة، حقيقة أن الكاتب لا يعرف ما يقوله، فاللغة هي التي تتحدث نيابة عنه.

تبدو هذه الصياغة التصنيفية التي وقف عليها "أمبرتو إيكو" قصد تجلية البعد التأويلي –مصنّفا ومستقرءا– قد جمعت بين أطراف المعادلة النقدية (النص: لغة + دلالة، الكاتب، القارئ) لتوضّح مكمن الأهمية في فهم حقيقة مظاهر التجليات الدلالية.

ومنه، وتماشيا مع هذا المقترح النقدي، وقصد تخليص النص من الحاضن الدلالي المسطَّر سلفا، والعودة به إلى ميزته اللامتناهية، على القارئ – كما يُقر "أمبرتو إيكو"– « أن يتخيل أنّ كل سطر – من النص – يخفي دلالة خفية، فعوض أن تقول الكلمات، فإنّها تخفي ما لا تقول، إنّ مجد القارئ يمكن اكتشافه أنّه بإمكان النصوص أن تقول كل شيء باستثناء ما يود الكاتب التدليل عليه، ففي اللحظة التي يتم فيها الكشف عن دلالة ما، ندرك أنّها ليست الدلالة الجيدة، إنّ الدلالة الجيدة هي التي ستأتي بعد ذلك، وهكذا دواليك، إنّ

الأغبياء، أي الخاسرين، هم الذين ينهون السيرورة قائلين: "لقد فهمنا". إنّ القارئ الحقيقي هو الذي يفهم أن سر النص يكمن في عدمه»[15].

يبدو أن "أمبرتو إيكو" قد لخّص ما تصبو القراءة السيميائية إلى أن تجعله أحد أهم معالمها النقدية ألا وهو التأويل، متجاوزة بذلك صيغتي الفهم والتفسير لأنّهما – في اعتقادها – تُحدّان من انفتاح سيرورة التدليل، إذ تأخذ باستراتيجية معينة تشتغل على تسطير حجم وامتداد أبعاد المعنى، وهذا كلّه – ضمن التصور الجديد –لا يقود إلى إنتاج دلالة ما، بل يأسرها في بوتقة التحليل المحايث.

من هذا المنطلق، قمين بنا أن نشير إلى أنّ التصّور النظري الذي تقترحه فرضيات السيميائية في انفتاحها على التأويل، إنّما هو مطروح في صيغة سؤال لا يستدعي جوابا نافذا كونه يُعدّ عاملا أساسيا في خلق أكبر عدد ممكن من القراءات، « فإنتاج نص ما يقتضي اقتطاع جزئية ثقافية لتحويلها إلى كون دلالي يتم تشخيصه من خلال خلق وضعيات إنسانية تأخذ على عاتقها إدراج القيم ضمن مقتضيات السلوك المحسوس، ولن تكون مهمة المحلّل هي تفصيل ما يعطيه النص مكثّفا، أو العكس من ذلك، تكثيف ما يعطيه النص مفصلا، إنّ القراءة بناء لسياقات»[16]، ولن يتم هذا البناء إلاّ من خلال ذات قارئة على وعي بالطرائق التي ينتهجها أصحاب النظرية السيميائية وما سواها عن مسالك المعنى.

وبذلك، تندرج هذه التوّجهات ضمن الرأي الذي شيّدته السيميائية التأويلية، وهي تعيد استدعاء البعد السياقي الذي من شأنه إبراز خصوصية الُمعطى الثقافي للنص الأدبي، لا بالتصور الذي تبنّته القراءات السياقية في زمن سابق، بل من خلال مدّ جسور التواصل بين النص والقارئ، وإعادة الاعتبار لفكر المتلقي المستقل الذي له أن يُخرج النص من دائرة الانغلاق ارتكازا إلى ما تقترحه عليه إمكاناته التأويلية.

الهوامش:

[1]– محمد الداهي، سيميائية الكلام الروائي، شركة النشر والتوزيع – المدارس– الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006، ص04.

[2]– ينظر: نور الدين قارة مصطفى، النص الأدبي من النسق المغلق إلى النسق المفتوح، أطروحة دكتوراه في النقد المعاصر، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة السانيا، وهران، 2010.2009، ص202.

3 – سعيد بنكراد، سيرورات التأويل من الهرموسية إلى السيميائيات، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، الطبعة الأولى، 2012، ص328.

4- *U.Eco, lector in fabula, le role du lecteur, traduit par Myriem bouzaher, grasset et Fasquelle, paris, 1985, p71.*

* – إنّ مفهوم المعنى الثابت والوحيد للنص الأدبي هو الذي خلق عبر العصور ذلك البحث الدائم عن حقيقة النص، وقاد أيضا إلى الاعتقاد بأننا قادرون على بلوغ ما يتطابق تمام التطابق مع ذلك المعنى الذي كان في ذهن الكاتب قبيل وأثناء الكتابة، بينما الذي كان يحدث على الدوام هو احتدام التأويلات وتصادمها، ولم تتوقف النصوص أبدا عن أن تكون قابلة في كل الظروف واللّحظات التاريخية لأن تقرأ وتؤول بأشكال جديدة ومختلفة عمّا سبق. وإنّه ليبدو أن ليس هناك قوة مهما علا شأنها يمكن أن تمنع من استمرار قراءة وتأويل النصوص بأساليب جديدة واستنتاجات مغايرة في الحاضر والمستقبل.

ينظر: حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، 2003، ص.ص 242.243.

[5]–عبد القادر فيدوح، السيميائيات وعوالم المغامرة النقدية، حوار أجراه "عبد القادر فهيم شيباني"، مجلة أيقونات، منشورات رابطة سيما "للبحوث السيميائية، سيدي بلعباس، الجزائر، العدد الأول.2010، ص135.

[6] –*Julia Kristiva, sémiotiké, recherches pour une sémanalyse, éd seuil, paris, 1969, p114.*

[7]– نور الدين قارة مصطفى، النص الأدبي من النسق المغلق إلى النسق المفتوح، (م.س)، ص197.

[8] – محمد الداهي، سيميائية الكلام الروائي، (م.س)، ص3.

[9] –*El-moustfa chadli, sémiotique, vers une nouvelle sémantique du texte, puplication de la faculté des letteres et des sciens hummaines, Rabat, n 10, p19.*

ينظر: ترجمة الطاهر روابنية، السيميائيات الأدبية، مجلة بحوث سيميائية، يصدرها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، ومركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، الجزائر، مطبعة النخلة، الجزائر، العددان السابع والثامن 2010–2011، ص133.

10– ينظر: الطاهر روابنية، السيميائيات الأدبية، مجلة بحوث سيميائية، (م.س)، ص133.

11–المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

12– سعيد بنكراد، سيرورات التأويل، (م.س)، ص329.

13– حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة، (م.س)، ص6.

14– أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2004،ص42.

15–المرجع نفسه، ص43.

16– سعيد بنكراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، 2008 ،ص.ص 34.35.